

ناشطون أوروبيون في الذكرى العشرين لمجزرة صبرا وشاتيلا: كلنا فلسطينيون

جابر سليمان*

جاؤوا طواعية من عدة دول أوروبية: إيطاليا، إسبانيا، فرنسا، بلجيكا، النرويج، الدانمارك، السويد، ألمانيا، وحتى من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان؛ بينهم برلمانيون وأعضاء في أحزاب اليسار واليمين وكتّاب وإعلاميون وأكاديميون ونقابيون وناشطون في منظمات غير حكومية. جاؤوا إلى بيروت لإحياء الذكرى العشرين لمجزرة صبرا وشاتيلا. هدفهم المعلن التضامن مع أهالي الضحايا، فلسطينيين ولبنانيين. أمّا الغاية الأبعد فهي التضامن مع نضال الشعب الفلسطيني، والدفاع عن حقوقه التاريخية والوطنية، ودعم انتفاضته الباسلة، واستنكار المجازر التي يرتكبها سفاح صبرا وشاتيلا شارون بحق الفلسطينيين في غير مدينة وقرية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

للعام الثالث على التوالي يجري إحياء ذكرى المجزرة منذ أن أطلقت صحيفة "المانيفستو" الإيطالية مبادرتها في هذا الخصوص. لكن الذكرى هذا العام تميزت باتساع حملة التضامن، وبتزايد عدد أعضاء الوفود. فإلى جانب الوفد الإيطالي الذي دأب على الحضور، كان هناك الوفد الإسباني الذي حضر بدعوة خاصة من اللجنة التأسيسية لمساندة الدعوى ضد شارون في المحاكم البلجيكية، والوفد الفرنسي المكوّن من جمعية "التوأمة بين المدن الفرنسية والمخيمات الفلسطينية" و"الحملة المدنية العالمية لحماية الشعب الفلسطيني"، فضلاً عن الوفد البلجيكي ووفود أخرى أقل عدداً. ومن جهة أخرى اتسعت دائرة الهيئة المنظمة للذكرى لتأخذ بعداً فلسطينياً/لبنانياً أعمق وعربياً. فإلى جانب "هيئة تنسيق الجمعيات الأهلية العاملة

(* باحث فلسطيني، ومنسق "اللجنة التأسيسية لمساندة الدعوى ضد شارون" في المحاكم البلجيكية.

في المخيمات الفلسطينية، و"شبكة الجمعيات الأهلية العربية للتنمية"، وصحيفة "السفير"، شملت الهيئة المذكورة "اللجنة التأسيسية لمساندة الدعوى ضد شارون" وهيئات لبنانية أهلية أخرى.

على مدار أسبوع أو يزيد (11 - 2002/9/19) ملأ الناشطون الأوروبيون أزقة المخيمات في شاتيلا وبرج الشمالي ونهر البارد والبدواوي وبرج البراجنة وعين الحلوة، واتجهوا جنوباً حتى سجن الخيام وقانا وبوابة فاطمة على الحدود اللبنانية - الفلسطينية، فكانوا شهوداً على جرائم الاحتلال الإسرائيلي للجنوب اللبناني. جالوا في المخيمات والتقطوا صوراً ورأوا بأعينهم مشاهد البؤس وصور المعاناة اليومية. تألموا ونطقوا وكتبوا عما شاهدوه. زاروا أهالي الضحايا وتحدثوا إليهم وإلى الناس البسطاء المتعبين المكثريين جرأء الركض وراء الرغيف المراوغ، وانبهروا خصوصاً بالأطفال وشقاوتهم التي أضفت على المشهد معنى إنسانياً حميماً. ومنهم من استذكر كلمات عملاق الأدب الفرنسي، جان جينيه، في كتابه "أسير عاشق" التي تقول: "الجمال أخاذ في المخيمات حيث تسود مملكة الأطفال". وجينيه عاش تجربة العشق الفلسطيني في مخيمات الفدائيين في الأردن. وهو من كتب نصاً إبداعياً مذهلاً عن مذبحة صبرا وشاتيلا بعنوان "4 ساعات في صبرا وشاتيلا"، بعد وقوع المجزرة مباشرة. وهذا النص ترجم إلى عدة لغات، وجرى تحويله إلى عمل مسرحي في فرنسا.

الإيطالية ميلاني، صاحبة فرقة مسرحية تسمى "المتجول"، تعرفت مصادفة على المجزرة من خلال نص جان جينيه المذكور. وأرادت بقدمها إلى شاتيلا أن تتعرف على مسرح الجريمة. قالت في إثر الزيارة: "هناك الكثير مما سنغيره في مسرحنا؛ فالواقع أقسى مما تخيلنا." وتساءلت أمام مشاهد الحياة اليومية في المخيم: "لماذا يعانون كل ما يعانونه هنا؟" الكاتبة الإسبانية مونسيرار فرنانديز علقت على معرض للوحات رسمها شباب وشابات من مخيمي نهر البارد والبدواوي أقيم في مركز الرابطة الثقافية في طرابلس بالقول: "أردت أن أنحي مشاعري جانباً عند مشاهدتي تلك اللوحات، إلا إن هذا لم يمنعني من البكاء." وفي السياق ذاته علّق أحد أعضاء الوفد الإسباني قائلاً: "إذا كانت اللوحات تحمل هذا القدر من المعاناة، فكيف إذا في الحياة اليومية؟" أمّا إغناطيوس، والذي يسمى نفسه "نورس"، وهو محاضر في قسم اللغة العربية في جامعة مدريد المستقلة، فتحمس لنقل معرض الصور إلى جامعته في مدريد.

النائب الإيطالي ماريو بولغاريللي، الناشط في الحملة المدنية العالمية التي اخترقت حصار مقر عرفات في رام الله في آذار/مارس الماضي، هالته حالة الحرمان

والبؤس في المخيمات واستنكر ذلك بطريقة دبلوماسية: "لن أسمح لنفسي بإعطاء دروس للبنان في كيفية معاملة أناس يقيمون بصورة مؤقتة على أرضه، وخصوصاً أن بلدي إيطاليا يعامل المهاجرين بطريقة سيئة." لكن بولغاريللي يعبر عن تعاطفه بشكل عملي، فهو قد تبني خمسة أطفال فلسطينيين من رام الله. ويقول في ذلك: "إن لابنتي ثلاثة إخوة من شعب تشياباس في المكسيك، إضافة إلى الأطفال الفلسطينيين الخمسة."

مثلت مسألة حقوق الفلسطينيين السياسية والإنسانية نقطة ثقل مركزية في المواقف التي عبر عنها أعضاء الوفود خلال لقاءاتهم الرسمية وغير الرسمية مع رئيس الجمهورية العماد إميل لحود، ومع رؤساء لجان المجلس النيابي، ومع مختلف الأحزاب اللبنانية، وخلال فعاليات البرنامج الأخرى.

في هذا السياق تحدث رئيس الوفد الإسباني ألبرتو كروز، باسم الوفود الأوروبية كافة، في نهاية المسيرة التضامنية التي انطلقت من ساحة بلدية الغبيري إلى المقبرة الجماعية لضحايا المجزرة، فقال: "إن إسرائيل مسؤولة عن المجازر التي ترتكب، لكن أوروبا مسؤولة أيضاً لأنها صامتة ولا تقوم بأي مبادرات. أن الأوان للقيام بعمل ملموس على الأرض دفاعاً عن الأرض الفلسطينية والحقوق الفلسطينية." وطالب المسؤولين اللبنانيين بأن يمنحوا الفلسطينيين في لبنان الحقوق المدنية، وبإلغاء القوانين غير العادلة بحقهم، وآخرها قانون منع التملك. أما رئيس لجنة توأمة المدن الفرنسية مع المخيمات الفلسطينية، فرناندو توبك، فقال في الموقف ذاته: "أتينا في وفد مشترك من الفرنسيين والبلجيك لنقول نحن معكم في الذكرى العشرين للمجزرة، وسنواصل العمل كي يصبح كلام الفلسطينيين مسموعاً في بلادنا. وسنستمر في النضال معكم إلى أن يتحقق حقكم في العودة."

وفي المؤتمر الصحافي الذي عقد في دار نقابة الصحافة لتتويجاً لزيارة الوفود، قال رئيس الوفد الإيطالي ستيفانو كاريني: "أتينا من أجل أن نذكر العالم بما جرى في صبرا وشاتيلا، ولنطالب المجتمع الدولي بمحاكمة شارون، ولنؤكد أن لا سلام من دون احترام مبادئ القانون الدولي." وقالت ممثلة جمعية المساعدات الشعبية النرويجية، كريستين اسكلون، في موقف لافت بشأن حق العودة: "إن لا حل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين من دون أن تعترف إسرائيل بحقهم في العودة وفق القرار 194." وأسفت لعدم اتخاذ بلدها موقفاً من تطبيق القرار المذكور، وقالت: "إن الفلسطينيين في لبنان لا يطالبون بالتوطين، وإنما بالكرامة الإنسانية، وبأن يكون لهم الحقوق المدنية نفسها التي للآخرين." وتحدث براين أسبنسن باسم الوفد الدانماركي، فقال: "يجب أن يحصل

الفلسطينيون على حقوقهم المدنية، وأن يكون حق العودة شرطاً لأي حل".
أبرز إحياء الذكرى العشرين للمجزرة أهمية التواصل مع قوى المجتمع المدني الأوروبي المناهضة للعنصرية والعولمة، وضرورة خوض غمار النضال القانوني والمدني الذي لم ينل الأهمية التي يستحق في الماضي. كما أبرز أهمية تطوير هذه التظاهرة وتحويلها إلى حملة مدنية عالمية للتضامن مع الشعب الفلسطيني في مواجهة العنصرية الصهيونية، ولخرق جدار الصمت بشأن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة في كل مكان، انطلاقاً من الحالة الفلسطينية. فمن بورتو أليغري إلى ديربان إلى جوهانسبرغ إلى صبرا وشاتيلا/بيروت، المسار واحد، والجهة واحدة ضد العنصرية وقوى الرأسمالية والعولمة المتوحشة.

وقد كان لافتاً هذه السنة الرسالة التي حملتها المرخصة الأميركية اليهودية الشجاعة السيدة ألين سيغل، والتي كانت شاهدة على المجزرة خلال عملها في مستشفى غزة/صبرا سنة 1982. تلك الرسالة الموجهة من "تجمع النساء من أجل السلام العادل"، الذي يضم تسع منظمات نسائية إسرائيلية، إلى أهالي ضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا. ومما جاء في هذه الرسالة: "إن قلوبنا يعتصرها الألم عندما نتذكر على وجه الخصوص المجزرة الفظيعة التي تعرض لها اللاجئون الفلسطينيون في مخيم صبرا وشاتيلا منذ عشرين عاماً، والتي سمحت إسرائيل بارتكابها. ولذا فنحن ندين القتلة المتوحشين الذين أودوا بحياة أحبائكم، كما ندين القادة الذين لا بد من أنهم كانوا مسؤولين عن جرائم الحرب هذه، وفي طليعتهم أريئيل شارون."

تميزت الذكرى العشرين للمجزرة بحضور قوي للضحية بعد غياب طويل؛ وهذا أمر بالغ الأهمية. فالمجازر لا تدخل التاريخ أو السياسة عبر استحضار أهوالها وفظائعها، وإنما عبر ارتفاع صوت الضحية ومعاقبة الجالاد. فالجزاء القانوني، كما يقول غروتوس، يجب أن يبنى على مفهوم الضرورة؛ "فهو ضروري للاجتماع البشري أولاً، كي لا ينحدر إلى درك الوحش، وضروري للضحية ثانياً، كي لا تتدهور في سلم الأدمية."

في ليل المجزرة الرهيب قبل عشرين عاماً كان الضحايا وحدهم في مواجهة القتلة المتوحشين. واليوم جاء بعض العالم، أو بمعنى أدق من يمثلون الضمير الأوروبي، ليؤنسوا وحشة الشهداء وأهلهم ووحشة المكان. فعلى امتداد الطريق الذي سلكته المسيرة التضامنية من ساحة بلدية الغبيري إلى المقبرة الجماعية للضحايا، هتف النشطاء الأوروبيون وبأكثر من لسان: "شارون وبوش مجرمان..". "العدالة للفلسطينيين..". "فلسطين حرة..". "الانتفاضة منتصرة..". و"كلنا فلسطينيون". ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>